شواهد الاستعارة في الأربعين النووية

Metaphor Examples in the Al-Arbaeen Al-Navaviyah

الحافظ مزمل حسين*

الدكتور. عبد المجيد البغدادي**

.

Abstract

There are many books of hadith named as collection of Forty Important hadith but the Al-Arbaeen Al-Navaviyah الأربعين النووية is the one which has drawn much attention of Ulemas throughout the ages. The book has got distinction and fame among the circle of Scholars and common people for its comprehensive content and remarkable expression. Its writer name is Muhiyuddin yahya bin Sharf. He has been magnificent writer of the 8th century.

This research paper is about the examples of Metaphor استعارة in Arbaeen Al-navaviyah. Here we have first of all given a brief introduction of the writer of Arbaeen Al-Navaviyah after which there is a summary of the content of the book. Following the literal and idiomatic meaning of Metaphor, I have explained Metaphor with examples from the book. There are actually three main types of Metaphor found in the mentioned book, namely:

1. *Isti'aara Tasrihiya*
2. *Isti'aara Makniya*
3. *Isti'aara Tamsiliya.*

All these types are explained with examples taken from the book Arbaeen Al Navaviyah. In the end there are the primary and secondary sources of the research.

Keywords: *Hadith, Iste'aara Tamsiliya, Makniyah, Tasrihiya*

.....

* باحث الدكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها,الجامعة الوطنية للغات الحديثة، سيكتر اتش 9 إسلام آباد، باكستان

**الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها,جامعة العلامة إقبال المفتوحة، سيكتر ايج ايت اسلام آباد، باكستان

الحمدُ لله الذي، قَدَّرَ لنا الأعدادَ والأوقات، إعتباراً لِلأَنَامِ، فَخَلَقَ إبنَ آدَمَ، مِنْ نُطْفَةٍ، بِأَرْبَعينَ يَوْماً، لِيكونَ مُضْغَةً، بأَرْبَعينَ أُخْرَى، حَتَّى يُصْبِحَ عَلَقَةً بِمِثْلِهَا. وواعَدَ مُوسى عليه السلام لِمِيْقَاتِ الكلامِ، أربعينَ يَوْماً، وبعثَ رسوله الكريم محمد ﷺ إلى العباد بَعْدَ بُلوغِهِ أربعينَ سنة ليبثُّ البشرى إليهم، بنشر الإسلام، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آله وصحبه الطيّبين الطاهرين، وبعد:

فلقد كَثُرَ التأليف في جمع أربعين حديثاً، منقولة عن رسول الله ﷺ، إلاّ أن أحاديث الأربعين النووية، قد انفردت بميزات عن تلك الأحاديث، لاشتمالها على جلِّ ما يحتاجهُ المسلم من أمور دينه، حتى وصفها العلماء، بأنَّ مَدار الإسلام عليها، فتوالى شرّاح الحديث لها، إلاّ أن المتمعن في تلك الشروحات، سيجد أن أصحابها، قد انشغلوا في استنباط الأحكام الفقهية منها، فأردت بأن أقوم بدراسة بلاغية ملتمسا فيها شواهد الاستعارة على الأخص فجعلت موضوع بحثي "شواهد الاستعارة في الأربعين النووية".

أولاً: حياة الإمام النووي:

النووي، هو الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، محي الدين، يحيى بن شرف بن مُري بن حسن بن حُسين بن محمد بن جمعة بن حزام، وكان ينادى في عصره بأَبي زكريا، وهي كُنية لَهُ؛ لأنه لم يتزوج حتى عَدَّهُ بعضهم من العلماء العزاب الذين لم يتزوجوا؛ خوفاً من الانشغال عن العلم.[1]

واشتهر بالنووي أو النَّوَاوِيَّ، وبحذف الألف أشهر. كما ورد في خطه . والنووي، نسبةً إلى نوا من قرى حوران، بسورية وهو منزل أيوب عليه السلام وبها قبر سام بن نوح .[2]

وقد ولد النووي في الأوسط من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة من الهجرة النبوية، وقدم دمشق بعد تسعة عشر من عمره لِيَسْكُن المدرسة الرواحيَّة ويأخذ قوته منها، حتى وصف بشدة الورع وعدم التطلع إلى الدنيا إن أقبلت أو أدبرت.[3]

وقد نفع الله المسلمين بتصانيفه العديدة على الرغم من قِصَر عمره، ومع ذلك ألّف عدداً من الكتب، حتى اشتهرت وجلبت إلى الأمصار، منها: شرح صحيح مسلم، والروضة، والمنهاج، والرياض، والأذكار، والتبيان، وتحرير التنبيه وتصحيحه، وتهذيب الأسماء، واللغات، وطبقات الفقهاء وأحاديث الأربعين النووية.[4]

ثانياً: التعريف بالكتاب أحاديث الأربعين النووية ودواعي تأليفه:

لقد امتازت جميع مؤلفات النووي، بالضبط والتدقيق والتحقيق والإنصاف في

عرض الأفكار والانتصار لرأي من الآراء[5]. فلقد كان ينظر في حاجة الناس فيما يؤلف من كتب وفيما شرح من مطولات وفيما يوضح من أفكار، فكأنه ينظر بنور الله، فيصيب المقصود وينال القبول من العلماء قبل العامة، حتى عُدَّت كتبه أمهات للكتب في مختلف جوانب العلم، ينهل العلماء والطلاب منها فكانت مرجعاً لهم على مدار العصور[6]. ومن أعمال النووي هو جمعه لأثنين وأربعين حديثاً، منها ستة وعشرون حديثاً أملاها عليه أستاذه الإمام الحافظ أبو عمر بن الصلاح وأطلق عليها أسم الأحاديث الكلية لأنها من جوامع كلمه ﷺ، ثم أخذ هذه الأحاديث ليزيد عليها ستة عشر حديثاً لتكتمل إلى اثنين وأربعين حديثاً، وسمى كتابه بالأربعين.[7]

ويقال أن الكتاب، سُمِّيَ بالأَربعين، وقد اشتمل على اثنين وأربعين، إما لأن العدد لا مفهوم لَهُ، كما نَصَّ على ذلك الأصوليون، أو أن ذكر القليل، لا ينفي الكثير، كما قيل به في رواية صلاة الجماعة، تعدل صلاة الواحد، بخمسٍ وعشرين مع رواية سبع وعشرين، أو أنه كان عزمه الاقتصار على الأربعين، فعند فراغها عَنَّ لَهُ زيادة الحديثين الآخرين.[8]

إن النووي، قد أشار إلى دواعي تأليف الكتاب، بقوله: "وقد استخرت تعالى في جمع أربعين حديثاً، اقتداءً بالأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام"[9]، وهو يقصد بذلك أصحاب الأربعين حديثاً، متأثرين بحديث رسول الله ﷺ الذي يرويه لنا أبو هريرة ﷺعن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حَفَظَ عَلى أُمتي أربَعينَ حديثاً من أَمْرِ دينها بَعَثَهُ الله يومَ القيامة في زُمْرَةِ الفَقَهاء والعُلَماء[10]. واتفق الحفّاظ على أنه حديث ضعيف ومع هذا فإن العلماء قد أجازوا العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال[11]، هذا وإن النووي لم يعتمد على هذا الحديث، وقد أشار بذلك، بقوله: "فليس اعتمادي على هذا الحديث، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة: ليبلغ الشاهد منكم الغائب[12]. وقوله ﷺ: نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فَأَدَّاها كما سمعها [13]. واعتقد والله أعلم بالصواب أن من أهم دواعي تأليف الكتاب، هو كثرة العلماء الذين سبقوه في تأليفهم للأربعينات في الحديث النبوي فأراد النووي أن يتميز عنهم بجمع أربعين حديثاً، عليها مدار الإسلام ويكفيه المسلم، إنْ عَمِلَ بها، دخل الجنة.

الاستعارة :

الاستعارة لغةً: الاستعارة مأخوذة من العارية، ومن إعارة الثياب والأدوات، واستعارة شخص من شخص آخر لمعرفة بينهما.[14]

الاستعارة اصطلاحاً: هو أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك، بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به[15]. مع ضرورة وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.[16]

ولقد وردت الاستعارة في أحاديث الكتاب في ثمانية عشر موضعاً، تنوعت بين استعارة تصريحية ومكنية من جهة الإفراد وتمثيلية من جهة التركيب، وهذا ما سنتناوله في تقسيمنا للمبحث.

1 . الاستعارة التصريحية:

وهي: "أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه، هو المشبه به"[17]. وقد تسمى أيضاً بالمصرحة لأن لفظ المصرحة، مأخوذ من مادة التصريح، ويدل على ما تدل عليه من أن المستعار مذكور ومنصوص عليه[18]. ومن الملاحظ أن هذا النوع من الاستعارة قد ورد في موضعين فقط، أحدهما، ورد في حديث لرسول الله بقوله: ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كله، وإذا فَسَدتْ ، فَسَدَ الجسدُ كُله، ألا وهيَ القلبُ.[19]

من المؤكد أن الدراسات النفسية، قد أوضحت أن صلاح الإنسان، يبدأ بإصلاح النفس من داخلها، وهذا الإصلاح يبدأ بالقلب عن طريق الإيمان بالله وتوحيده، والتقرب إليه بالتقوى والعبادات والطاعات.[20]

والرسول ، يبين لنا ذلك في حديثه، بتسلسلٍ منطقي، يبرز المعنى فيه، بتناسق دقيق يدور بدوران العلة والمعلول، واصفاً القلب بالمضغة منكراً إياها ليفيد تعظيمها مع صغرها في جسم الإنسان، مُقدماً الجار والمجرور عليها، لكونها نكرة لا يجوز الإبتداء بها عند النحاة. مُستدعياً التعبير بأداة قيل إنها "موضوعة للمستقبل، مضمنة معنى الشرط غالباً"[21]، فوضعت الشرط النبوي أمام خيارين ورد بأسلوب الاستعارة التصريحية ، عندما استعار للمضغة الفساد والإصلاح، إذ شبّه أعمال الإنسان السيئة بالفساد أو المرض الذي يصيب القلب حقيقة فيعطل وظائفه بصورة صحيحة ، بينما شبّه أعمال الإنسان الصالِحة بصلاح القلب وخلوّه من الأمراض التي تعطل وظائفه . وحذف المستعار له في كلا الاستعارتين والتصريح بالمستعار منه ، قد جعلنا نطلق على الاستعارتين بالتصريحية.

وهذا ما أكده الزمخشري بجواز استعمال المرض والفساد في القلوب حقيقةً ومجازاً،

فالحقيقة أن يراد الألم، والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها، وغير ذلك ، مثل ما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك .[22]

وواضح أن بلاغة الاستعارة التصريحية في الحديث قد اقتضت توجيه المرض والفساد أو الصلاح على غير ما وضع له في اللغة "وهو أولى لما فيه من الإيحاء على المعاني التي ذكرها الزمخشري".[23]

أما الحديث الثاني فقد ورد في حديث قدسي يرويه لنا رسول الله عن ربه بقوله: يا عِبادي إنّي حَرّمْتُ الظلم على نَفْسي وجَعَلْتُهُ بَيْنَكمْ مُحَرّماً، فلا تَظالَمُوا... .[24]

لقد أجمع العلماء، على تحريم الظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله لغةً[25]. "والتصرف في حق الغير بغير حق، أو مجاوزة الحدِّ،عرفاً"[26] . والحديث القدسي يتسلسل بعبارات تبرز المعنى أو الغرض الذي عُدَّ من أجله الحديث وهو تحريم الظلم بين العباد، مُبتدأً الحديث أولاً بتحريم الظلم عن نفسه تبارك وتعالى، حتى ينقلنا ثانياً بجعله محرماً بين عباده، ليختم عبارة الحديث بالنهي عن ظلم العباد فيما بينهم.

ولعل السؤال الذي يطرأ هنا: لما كان الظلم ، مستحيل في حقه تبارك وتعالى فكيف حرمه على نفسه، ونحن نعلم أن ليس فوقه من يطيعه تعالى حتى يجد له حداً فيقال أنه قد جاوزه؟

إنّ هذا السؤال يقودنا إلى بيان دقة الحديث القدسي في استعارة ألفاظ، ترسم لنا بالصورة والكلمة درجة تقبيح الظلم، فقال الطيبي: وفي الحديث استعارة تصريحية، عندما شبّه تنزهه تعالى عن الظلم، بتحريم المكلف عمّا نهي عنه شرعاً في الامتناع عنه. وكأنه تبارك وتعالى أراد أن يقول: أني تقدست عنه وتعاليت، فهو في حقي كالشيء المحرم على الناس[27]. فاستعار اللفظ "حرّم" من التحريم وحذف المستعار له. هذا وان دقة الاستعارة في الحديث، قد جعلت النفس المؤمنة أكثر اجتناباً للظلم خصوصاً بعد معرفتها اجتناب الظلم وتحريمه عن خالقها بتنزيله تبارك وتعالى منزلة العباد وشمول حكم التحريم عليهما.

2 . الاستعارة المكنية :

ويطلق عليها أيضاً: الاستعارة بالكناية، وهي التي يحذف منها لفظ المشبه به، واكتفي بذكر شيءٍ من لوازمه، دليلاً عليه .[28]

ومن ميزات هذه الاستعارة أن مستخدمها، بإمكانه أن يُشخص الأشياء الجامدة، ويضفي عليها المزيد من الحيوية والحركة، وهذه وسيلة من وسائل الرسول ﷺ في أحاديثه. والناظر في أحاديث الكتاب يجد ما يؤيد ذلك ، فكثرت عدد مواضعها في تلك الأحاديث عن سابقتها، إذ وردت بسبعة مواضع، وسنفصل القول في نماذج منها.

إذ نطالع في حديث جرى بين الرسول ﷺ وبين معاذ ﷺ الذي استهان من أمر اللسان بقوله: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمَّكَ ! وهل يَكُبُّ النّاسَ في النَّارِ عَلى وُجُوهِهِم أو قال: عَلى مَنَاخِرِهِم . إلاّ حَصَائدُ ألْسِنَتِهِمْ.[29]

قبل البدء بتحليل الحديث ، يجدر بنا أولاً ، أن نعرف ما قيل عن اللسان، حتى يستعار الحصائد له، " فكثيراً ما يُقالُ: " إيَّاك وأن يضرب لسانك عنقك " إذ نسب الضرب إلى اللسان؛ لأنه السبب في هلاك الإنسان"[30]. فرب كلمة تصدر من الإنسان، لا يلقى لها بالاً، تهوي به إلى النار ؛ لأن اللسان من أكثر الأعضاء عملاً، وما مِن مصيبةٍ إلاّ وَلَهُ فيها مجال فمن أهمله مطلق العنان ينطق بما شاء من البهتان، سلك به الشيطان في كل ميدان في الخطايا والطغيان، وما ينجي شَرَّهُ إلاّ مَنْ يقيده بلجام الشرع والإيمان[31]. فأنشد الشافعي ﷺ يقول:[32]

إِحْفَظْ لِسانَكَ أَيُّهَا الإِنْسانُ لايَلْدُد غَنَّك إنَّه ثُعْبَانُ

كَمْ فِي المَقابرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانُهُ كَانَتْ تَهَاب لِقائِهِ الشُّجْعَانُ

والحديث النبوي يبين لنا تلك اللحظة، التي استهان بها معاذ من أمر اللسان، فكان ردّه ﷺ بلغة شديدة الإيقاع، تدل على انفعاله في تلك اللحظة، فقيل أن لغة المتكلم، إذا كانت تحمل في طياتها الغضب والانفعال ، وَجَبَ عليه، أن يستخدم ألفاظاً تناسب غضب وانفعال منشئِها[33]. وفي الحديث ألفاظ تدل على ذلك باستخدامه عبارة ، ظاهرها دعاء على المخاطب بالموت ولكن في حقيقتها المعجمية،تحمل في طياتها معنى الفقدان إذ قيل أن الثِّكْلَ: "يدل على فقدان الحبيب"[34]، وفقدان الأم وَلَدَها.[35]

لقد كانت إجابة الرسول ﷺ إجابة ألم وحزن لأُولئك الذين لا يُلقون بالاً لألسنتهم ؛لذلك كان الخطاب بصيغة العموم " الناس "، " وجوههم "، " ألسنتهم " وليس بصيغة الإفراد، ليصدر حكم الحديث على جميع الناس دون استثناء.

والذي زاد الحديث بلاغةً، بروز أسلوب الاستعارة، لا سيما وإنه قد جاء في موضع القصر بقوله: "وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم . إلاّ حصائد ألسنتهم".

فلجرس الكلمة: " يكب " إيقاع مصور للمعنى، جسّد لنا حالة الرعب والفزع التي يعيشها الكافر في تلك اللحظة.إذ لا يخفى علينا ما لدلالة " الكب " التي جاءت في اللغة، حاملة معنى الصرع، من كَبَّه الله على وجهه بمعنى صرعَهُ[36]. أو قلبه[37]، وقد وردت في القرآن، تحمل تلك الدلالة، لشدة العقاب[38]، فقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[39]، وخصَّ الوجه أو المنخر دون سائر الأعضاء الأخرى؛ "لأنهما أول الأعضاء سقوطاً".[40]

ولعل استعارة لفظ الحصائد للسان ما أثار الإعجاب ، فقال أبو منصور الثعالبي : " أنها من أحسن استعارات النبي ﷺ وحكمة سارت بين الناس " [41]. وقال الشريف الرضي : وهذه من الاستعارات العجيبة والمراد بها أن أكثر معاثر الأقدام ومصارع الأنام، إنما تكون بجرائر ألسنتهم وعواقب أقوالهم السيئة.[42]

لقد استخدم الرسول ﷺ تصوير مقنع ، يجسم فيه تلك المعاني بصورة حسية متحركة، نتخيل فيها آلة الحصاد: " المنجل " وهي تقطع الزرع وتجرف خضرة ويابسة، جميلة ورديئة، واستعارته للسان، نظراً للجامع الذي يجمع بينهما فللسان أيضاً حاسة تصدر الكلام القبيح والحسن والخير والشر. فذكر المستعار له: اللسان، وحذف المستعار منه: المنجل وترك شيءٍ من لوازمه: " الحصائد " فتكون استعارة مكنية، وباضافة الحصائد إلى اللسان تكون تخيلية؛ "لأن قرينة المكنية استعارة تخيلية".[43]

وقد وردت الاستعارة المكنية في حديث يرويه لنا عمر بن الخطاب ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ، شهادة أن لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصلاةَ وإيتاءِ الزكاةِ، وحجِّ البيتِ، وصومِ رمضانَ.[44]

دقة فنية، يتخذها الرسول ﷺ، لِيُقرِّب بِها معاني حقائق الإسلام، متخذاً أسلوب الاستعارة المكنية، وسيلة له لتجسيم الأركان التي يعتمد عليها، فابتدأ سياق الحديث، بلفظ يشير إلى التماسك والقوة والشرف[45]، لا سيما إن بناء اللفظ " بني " بناءً للمجهول، قد أعطاه

جرساً موسيقياً، يسهم إسهاماً فعالاً في إغناء النص بعبارات تجلب انتباه السامع لوضع علاقات أو مشابهة تجمع بين المستعار له: بناء البيت المرتكز على أعمدة خمسة، وبين المستعار منه: الإسلام بأركانه الخمسة. وحذف أحد طرفي الاستعارة . المستعار له . وإبقاء شيءٍ من لوازمه: البناء، قد جَعَل عبارات الحديث، مجسدةً تجسيداً يبعث الحياة فيها، باستمرار وتتجدد براعة أسلوبها بتجدد الأجيال التي تسر سماعها بدقة تصويرها، إذ إن تشبيه المعنويات بالمحسوسات يقربها إلى الذهن ويرسمها رسماً جميلاً، ويطبعها بطابع التجدد والخلود على مر العصور. "فاللفظة تستعار من حيث مدلولها في حقيقة اللغة؛ لتؤدي معنى خارجاً عن الحقيقة في سياق معين ودلالة معينة ثم تعود بعد ذلك ؛ لتمارس وظيفتها في حقيقة اللغة".[46]

وعلى أي حال فإن الجامع ما بين بناء البيت والإسلام . فيما اعتقد . هو التحصن من جميع المخاطر، فالبيت بمثابة تجمع للأسرة، فهو مُلِمٌ للأحباب، يقيهم المخاطر الكونية من شدة بردٍ أو حرٍ، فكذلك الحال مَنْ دخل الإسلام، فبه يتحقق السلام والتسامح والأخوة بين المسلمين. ولما كان سقوط أحد أعمدة البيت، قد يحدث اضطراباً في باقي أعمدته الأخرى مِمّا يكون عرضةً للسقوط فكذلك الحال بالنسبة لأركان الإسلام المستند إليها، فتارك ركن الصلاة مثلاً، يكون عرضةً للسقوط في مزالق الشيطان ومعاصيه التي تهدم الأركان الأخرى.[47]

وقد ذهب بعضهم إلى أن في الحديث استعارة تمثيلية وهو ما يتنافى مع قانونها الذي وضعه البلاغيون والذي ينصّ على أن المثل يضرب بجمل لا بُدَّ فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهاً به ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة ... ".[48]

فالحديث وأن تطابقت فيه صورة بناء البيت مع صورة أركان الإسلام، إلاّ أننا نجد أن المستعار منه أو المشبه به محذوف من الكلام لتبقى الاستعارة المكنية هي الواردة في الحديث بأسلوبها الفني الرائع.

ونختم موضوعنا بتعابير وردت في الحديث السابق نفسه، وبأسلوب الاستعارة المكنية، عندما سأل الرسول ﷺ معاذ، بقوله: أَلا أُخبِرُكَ برأسِ الأمرِ وعمودِهِ وذروةُ سَنامِهِ؟ قُلتُ بلى يا رسول الله، قال: رأسَ الأَمرِ الإسلامُ وعمودُه الصلاةُ وذروةُ سَنَامِهِ الجهادُ.

إنّ حرص الرسول ﷺ على أداء مبادئ الشريعة الإسلامية قد جعله يستخدم كافة الوسائل لبيانها والإفصاح عنها، فها هي أوصاف الراحلة والبيئة النبوية، تتضح عندما جَسَّمَ لنا أمر ديننا بألفاظ محسوسة، تدل على العلو والرفعة في المنزلة، فالرأس: "هو أصل يدلُّ على تجمع وارتفاع"[49]. أما العمود : فهي الخشبة التي يقوم عليها البيت"[50]، أما الذروة: فهي أعلى السنام والجمع ذُرى.[51]

ولابُدَّ من الإشارة، أن صاحب المجازات النبوية، قد أكد بأن " هذه الألفاظ في الحديث، كلها مستعارة "[52]، فتشبيه الإسلام برأس الأمر، ليشعرنا بأنه من سائر الأعمال، بمنزلة الرأس من الجسد في احتياجه إليه ، وعدم بقائه دونه.[53]

هذا وإن التصوير الاستعاري في الحديث، يتحقق أيضاً، بضمير الشأن : " الهاء " والعائد إلى أمر الدين في قوله: " عموده، ذروة سنامه "، إذ أن ضمير الشأن هنا، يلفت النظر ويحرك العقل والمخيلة، لما يحدثه من انسجام يفصل عبارات الحديث فيما بينها، لتتوقف قليلاً في اتاحة الفرصة أمام السامع لعقد مشاركة تربط المستعار له أمر الدين بالمستعار منه: المشبه به عمود وَسنام مما يحدث الانطباع في النفس وبأسلوب أدق وأبلغ يرفع منزلة الصلاة المقيمة لشعار الدين، الرافعة لمنار الإسلام، برفعة العمود الذي عُدَّ الأساس المقيم للخيمة ولا إقامة لها بدونه. ولما أراد صلوات الله عليه أن يبين لنا أنه لا رفعة لِلواء هذا الدين ولا إعلاء لكلمته إلاّ بالجهاد؛ فضلاً عن أن صعوبة وصوله وعلو أمره وتفوقه على سائر الأعمال الأُخر، اختار لنا أعلى وأرفع ما في جسم الجمل، وهو سنامهُ؛ ليقرن الجهاد به.

3 . الاستعارة التمثيلية :

ضرب من الاستعارة التصريحية يكون الشبه فيها منتزعاً من عدة أمور، أي من حالة أو هيئة،وفيها نصرح بالمشبه به بدلاً من المشبه، ولا فرق بين الاستعارتين التصريحية والتمثيلية، إلاّ أن واحدة منها تجري في المفرد والأخرى تجري في المركب.[54]

ولم يرد هذا النوع من الاستعارة إلاّ في حديثين من أحاديث الكتاب، الأول منها: يرويه لنا العرباض ﷺ بقوله: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصِنا. قال: أوصيكمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والسَّمعِ والطاعَةِ وإنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ منكُمْ ، فَسَيرى اختلافاً كثيراً ،

فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسنّة الخُلفاءِ الراشدينَ المهديينَ ،عَضُّوا عَلَيْها بالنَّواجِذِ ، وإيَّاكُمْ وَمُحدَثاتِ الأُمورِ، فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالة .[55]

لقد كان الرسول ﷺ، يتخول أصحابه بالموعظة الحسنة، والتذكير بالله دائماً، خصوصاً إذا كانت هذه الموعظة تحسبنا لواقعة تحدث من بعده. مما استدعى التعبير بكلماتٍ تصدرت الحديث وهي توحي عن قرب وفاة الرسول ﷺ، فتقدمت عبارة: وجلت منها القلوب على عبارة: ذرفت منها الدموع؛ لأن وجل القلوب غالباً ما يؤدي إلى سيل الدموع، أثر الوصية، وهذا دليل على إخلاص الصحابة ﷺ مع رسول الله ﷺ، " وكان وجه فهمهم لذلك مزيد مبالغته ﷺ في تخويفهم وتحذيرهم على ما كانوا يألفون منه من قبل، فظنوا أن ذلك لِقرب موته ومفارقته لهم...".[56]

إنّ ما أثار أسلوب الاستعارة التمثيلية: " عضوا عليها بالنواجذ "، تقدم عبارات عدّها شرّاح الحديث من باب الإخبار بالمغيبات أو من باب ضرب المثل بغير الواقع على سبيل الفرض والتقدير[57]. بقوله: وإن تَأَمَّرَ عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم، فسيرى إختلافاً كبيراً. وبوقفة دقيقة نتأمل فيها اللفظ المستعار: " عضوا "، تقودنا إلى معرفة السر الكامن في العدول إليه وتوظيفه في الحديث. فالوصف بالعض وما يصاحبه من حركة انفعالية تسهم إسهاماً فعالاً للتمسك بالشيء المراد الحفاظ عنه من الضياع. ومما يزيد بلاغة الاستعارة التمثيلية في الحديث، أن تكون آلة العض ، بـ " النواجِذِ " وليس أطراف الأسنان فقط. والنواجذ، لفظ اختلف في الدلالة على معناه، فقيل أنه مأخوذ من نَجَذ، وهو " السن بين الناب والأضراس "[58]. وقيل أنها " أقصى الأضراس "[59]. وقيل: أن الأضراس كلها نواجذ، وهو الأصح[60] عند ابن فارس.

وهكذا استعار الرسول ﷺ هذه الحالة ليشبه بها حال مَنْ يتعامل بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ،فقال الشريف الرضي : " المراد ، أن اقطعوا عليها وقفوا عندها ولا تتجاوزوها إلى غيرها " [61] . فالجامع إذن ما بين طرفي الاستعارة ، هو شدة التمسك بشتى الوسائل ، لِئلاّ يضيع الشيءُ المراد التمسك به.وهذه عادته ﷺ في نقل المعنى الذهني الذي يجول في فكره وتوظيفه بصورة حسية ، تقرب ذلك المعنى إلى السامع وتشدُّ من انتباهه إليه؛ ليستجيب له.

وهذا طرف من حديثٍ قدسيٍ، نختم دراستنا به في هذا المبحث، يرويه لنا رسول الله ﷺ، عن رَبِّه يقول: يا بْنَ آدم: إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني، غفرتُ لك ما كان مِنْكَ ولا أُبالي.[62]

من أعظم أسباب قبول المغفرة: أن العبد إذا أذنب ذنباً ، لم يَرْجُ المغفرة من غير ربه، فهو يعلم أنه لا يغفر الذنوب أو يزيل العثرات، إلاّ الله[63]. وذنوب العبد وإن كثرت فإن عفو الله ورحمته، أعظم منها. والله تعالى أراد أن يبين ذلك لابن آدم، فضرب المثل بأسلوب الاستعارة؛ ليشبه حالهُ تبارك وتعالى في عدم استعظام الذنوب أو استكثارها بحالة الإنسان الذي لا يستعظم الأمور وإن عظمت، فلا يبالي لها. وجُعل حرف الواو في قوله: " ولا أُبالي " للحال دون العطف؛ لأن واو العطف، لمطلق الجمع، ولو اعتبرها للعطف ، فَسَيَقْتَضِي أن تكون المغفرة، تارة تترتب على الدعاء، وتارة تترتب على الرجاء، وهو ليس المراد، بل المراد أن المغفر، تترتب على الدعاء، بقيد الرجاء لذا جعلها للحال لأن الحال قيد في عاملها، والمعنى إني غفرت لك مدة دعائك في حال رجائك. وإنما كان الرجاء قيداً في الغفران؛ لتضمنه حسن الظن بالله والاعتماد عليه.[64]

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع، لبنان – بيروت، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، عدد الأجزاء:1.
3. الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل، بإشراف: د. جليل رشيد فالح، 1988م.
4. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
5. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.
6. البلاغة الاصطلاحية، عبده عبد العزيز قلقيله، دار الفكر العربي، 1407هـ. 1987م.
7. البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب ود . كامل حسن البصير، الطبعة الثانية، 1999م.
8. البيان في شرح الأربعين النووية، خالد البيطار، مكتبة المنار، 1987م.
9. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار الجيل، الكويت، 1966م.
10. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
11. التمثيل والمحاضرة، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، دار إحياء الكتب العربية القاهرة.
12. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد الأزهري، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958م.
13. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: عماد زكي، المكتبة التوفيقية، 2000 م.

14. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، الطبعة الثانية عشرة، دار الفكر بيروت، 1978م.
15. حاشية حسن بن علي على كتاب الفتح المبين، مطبعة العامرة الشرفية بشارع الحرنفش بمصر.
16. الحديث النبوي وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، الطبعة4، دار الشروق القاهرة، 2000م.
17. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان الشافعي الأزهري، الطبعة الأولى، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407 هـ. 1987م.
18. ديوان الشافعي، جمعه وحققه وعلّق عليه: زهدي يكنْ، دار الثقافة، بيروت.
19. سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، الطبعة الأولى، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000 م.
20. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، الطبعة الأولى، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م.
21. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى " الكاشف عن حقائق السنن "، شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
22. شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النووية، يحيى ابن شرف النووي، الطبعة الأولى، 1968م.
23. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، الطبعة3، دار العلم للملايين.
24. صحيح الأحاديث القدسية " ما حكاه النبي عن رَبِّ البَرية "، تحقيق: العلامة محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مركز تحقيق النصوص، الطبعة1، 2004م .
25. علم أساليب البيان، د.غازي يَموت، الطبعة1، دار الأصالة للطباعة، بيروت، 1983م.
26. العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية الرياض، 1983م.
27. عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، بدر الدين أبي محمد محمود العيني، الطبعة1، دار الكتب العلمية بيروت، 2001م.
28. فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م.
29. فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة عبد الرؤوف المناوي، الطبعة1، مطبعة مصطفى محمد بيروت.
30. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود . ابراهيم السامرائي، 1981م.
31. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، الطبعة الثانية، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، 1318هـ

32. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، دار بيروت للطباعة، 1956م.
33. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، الطبعة1، مكتبة نهضة مصر.
34. المجازات النبوية، الشريف الرضي، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة ، 1967 م.
35. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن النيسابوري الميداني، الطبعة3، دار الفكربيروت، 1972م.
36. مسند الإمام أحمد، تحقيق: محي الدِّين عبد الحميد، طبعة بيت الأذكار الدولية، الطبعة الأولى، 2001م.
37. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي،1987م.
38. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979م.
39. مفتاح العلوم، أبو يعقوب علي السكاكي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، الطبعة الأولى، مطبعة دار الرسالة، بغداد، 1402هـ. 1982م.
40. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة ، بيروت، لبنان، 1973م.
41. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، دار البحوث العلمية، جامعة الكويت، 1977م.

الحواشی

[1] العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية الرياض، 1983م، ص 92 .

[2] الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت: 185/9.

[3] فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 264/4.

[4] فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، 264/4.

[5] البيان في شرح الأربعين النووية، خالد البيطار، مكتبة المنار، 1987م ، ص 15 .

[6] المصدر نفسه ، ص 15.

[7] جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: عماد زكي، المكتبة التوفيقية، 2000 م ، ص 13 .

[8] حاشية حسن بن علي على كتاب الفتح المبين، مطبعة العامرة الشرفية بشارع الحرنفش بمصر، ص 34.

[9] المصدر نفسه، ص 8 .

[10] سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، الطبعة الأولى، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000 م ، رقم الحديث 1725.

[11] شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النووية، يحيى ابن شرف النووي، الطبعة الأولى، 1968م، ص 8.

[12] مسند الإمام أحمد، تحقيق: محي الدِّين، طبعة بيت الأذكار الدولية، الطبعة1، رقم الحديث 15942.

[13] سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، الطبعة الأولى، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م، رقم الحديث 2658.

[14] لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، دار بيروت للطباعة، 1956م، 624/4 -625.

[15] مفتاح العلوم، أبو يعقوب علي السكاكي، الطبعة1، مطبعة دار الرسالة، بغداد، 1982م، ص 599 .

[16] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، الطبعة12، دار الفكر بيروت، ص303.

[17] مفتاح العلوم، أبو يعقوب علي السكاكي، ص 576.

[18] البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب ود . كامل حسن البصير، الطبعة الثانية، 1999م. ص 351 .

[19] الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع، لبنان – بيروت، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، عدد الأجزاء:1، رقم الحديث: السادس .

[20] الحديث النبوي وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، الطبعة4، دار الشروق القاهرة، ص305.

[21] همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، دار البحوث العلمية، الكويت، 177/3.

[22] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، الطبعة الثانية، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، 1318هـ: 1 / 59 .

[23] الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة ماجستير، مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل، بإشراف: د. جليل رشيد فالح، 1988م. ص 188 .

[24] الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، رقم الحديث: الرابع والعشرون.

[25] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، دار الفكر للطباعة والنشر، 1979م: 59/4.

[26] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان الشافعي الأزهري، الطبعة الأولى، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407 هـ. 1987م: 325/1 .

[27] شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى " الكاشف عن حقائق السنن "، شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 101/5.

[28] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 145/1.

[29] الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، رقم الحديث: التاسع والعشرون.

[30] مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن النيسابوري الميداني، الطبعة3، دار الفكربيروت، 1972م: 417/1.

[31] فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة عبد الرؤوف المناوي، الطبعة1، مطبعة مصطفى محمد، 101/2.

[32] ديوان الشافعي، جمعه وحققه وعلّق عليه: زهدي يكنْ، دار الثقافة، بيروت. ص 28.

[33] النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973م. ص 121 .

[34]كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي، 1981م: 349/5.

[35] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس: 383/1.

[36] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، الطبعة3، دار العلم للملايين:1/ 207.

[37] تهذيب اللغة، أبو منصور محمد الأزهري، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958م: 180/1.

[38] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، الطبعة1، مكتبة نهضة مصر: 252/2.

[39] سورة الشعراء ، الآية 94.

[40] تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: 364/7.

[41] التمثيل والمحاضرة، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، دار إحياء الكتب القاهرة. ص25-27

[42] المجازات النبوية، الشريف الرضي، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة ، 1967 م. ص 98.

[43] البلاغة الاصطلاحية، عبده عبد العزيز قلقيله، دار الفكر العربي، 1407هـ. 1987م. ص 64.

[44] الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، رقم الحديث: الثالث

[45] تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار الجيل، الكويت، 1966م: 46/1 .

[46] علم أساليب البيان، د.غازي يَموت، الطبعة1، دار الأصالة للطباعة، بيروت، 1983م. ص 130.

[47] عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، بدر الدين أبي محمد محمود العيني، الطبعة1، دار الكتب العلمية بيروت، 2001م: 1 / 199 .

[48] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع. ص 19.

[49] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس: 2/ 471 .

[50] لسان العرب، ابن منظور: 3 / 303 .

[51] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري: 2345/6.

[52] المجازات النبوية، الشريف الرضي، ص 270.

[53] صحيح الأحاديث القدسية " ما حكاه النبي عن رَبِّ البَرية "، تحقيق: العلامة محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مركز تحقيق النصوص، الطبعة1، 2004م ، ص 108.

[54] البلاغة الاصطلاحية، عبده عبد العزيز قلقيله، ص 62

[55] الأربعون النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، رقم الحديث: الثامن والعشرون

[56] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان الشافعي الأزهري، 414/4 .

[57] المصدر نفسه: 415/4 .

[58] كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، 1981م: 95/6

[59] لسان العرب، ابن منظور: 3 / 513 .

[60] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس: 392/5.

[61] المجازات النبوية، الشريف الرضي، ص 110 .

[62] سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، باب فضل التوبة والاستغفار، الحديث: 3540.

[63] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ص 560 .

[64] حاشية حسن بن علي على كتاب الفتح المبين، مطبعة العامرة الشرفية بمصر، ص 251.